على
شرفة القمر
شعر
محمود سليمان الظاظا

المقدّمة

على شرفة القمر، حيث يختبئ الضوء بين غيمةٍ وأخرى، وحيث تسكن الأرواح حين تضيق بها الأرض، ولدت هذه القصائد.

هي ليست سوى أنفاس قلبٍ متعب، حملته الريح إلى ضفاف الكلمة، فصار يبوح بما لم يستطع البوح به في صمت الليل.

كتبتُها على مهل، كأنّي أخاطب نفسي أو أستدعي وجهاً غاب، أو أُمسك بظلّ حلمٍ أفلتَ من يدي. وفي كلّ بيتٍ منها، يتقاطع الوجع مع الأمل، والحنين مع الحضور، والحبّ مع الفقدان.

هذا الكتاب هو مرآة لرحلةٍ طويلة بيني وبين الحروف؛ رحلة بحثٍ عن المعنى، عن جمالٍ يخفّف وطأة القسوة، وعن قمرٍ يضيء ليل الروح مهما طال العتم.

أضعه بينِ أيديكم علّكم تجدون فيه صدىً من مشاعركم، أو لمسةً تذكّركم بأن الشعر باقٍ ما دام القلب يخفق بالحياة.

محمود سليمان الظاظا

1

شهر أيلول

شهرُ أيلولَ
يصبغُ القصيدةَ بالأصفر،
حروفَها، مفرداتِها، كلماتِها،
حتى العنوانَ العريض
كأوراقِ الخريفِ
حين تتناثرُ فوقَ رصيفِ صوفر
زينةً صفراءَ
تُغنّي بصمتٍ
للمرور.

2

آثار على الرمال

آثارٌ على الرمال،
لِقَراصنةٍ يغطّون في هدير البحر،
ولجِمالٍ تمضي عبر الصحراء
تبحث عن خيام العشيرة
بين كهوفٍ سحيقة
لا تُخفي أيّ سر.

آثارٌ على الرمال،
لضَبعَةٍ ماكرةٍ تستشيط،
كلّما ناداها القطيع
لتعبر الكهوف والمغاور،
الأودية والوديان،
والممرّات الجبلية الوعرة،

في جنح الليل،
تستشيط...

آثارٌ على الرمال،
لقَطا يبحث عن لقمةٍ صغيرة
لطفلته الوديعة الرضيعة
بين سهلٍ، ووادٍ، وهضبةٍ،
وتلّةٍ، ومنحدرٍ، وجبل.

آثارٌ على الرمال،
لنجمة المساء،
وهي تُروّض الغياب للسحاب،
وتُغريني بالسفر
نحو الأماكن الأشدّ وحشةً،
وأكثر رِيبةً وخيفة،
في ظلام الليل الدامس...

آثارٌ على الرمال.

3_

ياسمين

وكانت إذا تمايلتْ
زميلتي ياسمين،
انتشر عبير الياسمين
في أرجاء المكان،

وتتمايلُ معها شجرةُ الياسمين
في البستان
طربًا وفرحًا،

كأنما ثمّة سِرٌّ فريدٌ
يجمع بين ياسمينتين.

4

الكهرباء في لبنان

انقطاع الكهرباء وعودتها المتكررة في لبنان
يُشبه تمامًا مصابيح الزينة
المثبتة على دولاب الهواء الحديدي الضخم
في مدينة الملاهي بالروشة،
حيث تتوهّج اللمبات وتنطفئ بلا انقطاع.

لكن المفارقة،
أن ذاك الانطفاء والاشتعال المستمر هناك
لا يسبّب أعطالًا ولا خرابًا
في الألعاب والآلات والماكينات،
بينما في منازلنا
يتحوّل هذا المشهد "المضيء"
إلى كارثة كهربائية،
تأكل أعصابنا وتستنزف جيوبنا.

طرفة لبنانية...

لكنها على حسابنا دائمًا!

5

الأفكار العاتية

سيلٌ من الأفكار العاتية،

كسيولٍ جارفةٍ

تقتحمُ مدنَ الذاكرة،

لتضع النقطةَ

على أوّلِ حرفٍ

في قصيدةٍ

مجهولةِ الهوية.

6

هجوم سيبراني

هجومٌ سيبرانيٌّ
على دفترِ الأشعار،
يمحو ملامحَ قصيدةٍ
تنحني لأبطالِ غزّةَ الأشاوس،
فيرسمها كاذبةً
قصيدةَ عشقٍ
لمجنّدةٍ في جيشٍ
إسرائيليٍّ مجرم،
يشوّه الحقيقةَ
كما يشوّهون الأرضَ
والذاكرة.

7

نداء الروح

وكانَ الشعرُ أحيانًا

يصغي لنداءِ الروح،
لا لارتواءِ القلب،
ولا لِسحرِ العيون،
ولا لِهمساتِ الشفاه،
ولا لِرفةِ جفونٍ
تغري بالهوى...

فالروحُ وحدَها،
هي البوابةُ السرّيةُ
إلى المعنى.

8

الفناء

ومثلَ طفلٍ
يُغامر دائمًا بالخسارة،
اكتشفَ أيّامَ حياتِه
وسنواتِ عمرِه

وهي تتوارى أمامَه
عبرَ محطّاتِ القطارات...

من محطةٍ إلى أخرى،
عشراتُ المحطاتِ
المتنوّعةِ، المتلاحقة،
كان شاهدًا عليها بنفسِه،
لكنّها لم تُفضِ
إلى شيءٍ
إطلاقًا...

سوى إلى الفناء،
فناءِ العمر.

9

الحصار الاقتصادي

هذا الحصارُ الاقتصاديُّ
الكبير،
الذي يُطبِقُ علينا في لبنان،
يمارسهُ ماردٌ مُشترِكٌ
من كلِّ الجهات،
من السماءِ والأرضِ معًا...

وليس لهُ
إلّا ضربةُ حجرٍ
من مقلاعِ النبيِّ داوودَ،
عليهِ السلام،
ترديهِ قتيلًا.

10

ذاكرة الغريق

ليلٌ يشبهُ ذاكرةَ الغريق

في البحرِ الأسود...
ليلٌ خالٍ،
إلّا من بقايا نجومٍ متفرّقة:
نجمة، نجمتان، ثلاثٌ،
أربع،
وربما عشرٌ فقط...
لا أكثر،
كي يظلَّ الغرقُ
مكتملًا.

11

قصيدة حيّة

قصيدةٌ حيّة،
تشُقُّ صمتَ الجدران،
تتسلّلُ من بين زوايا المنزل،
لتجلسَ مهيبةً

على عرش الطاولة،

مزهوّةً بالثقة،

مكلّلةً بالكبرياء،

وشامخةً بعزّة النفس.

12

سُرّاق المسافات

لقد هجروكِ هذا الصباح:

حطّابوكِ،

رُعيانكِ،

غزلانكِ،

بناتُ آوى،

قُطّاعُ الطُرُق،

وسُرّاقُ المسافات...

ومضوا في رحلتهم المجهولة،

عبر السهولِ والأودية،
بين التلالِ وخلف الجبال،
يبحثون عن ملجأ،
عن مأوى،
أو مستقرٍّ أخير.

13

روما القديمة

كان ثمنُ القصيدةِ اللبنانية،
في أسواقِ روما القديمة،
– يُعادِلُ – في أقلِّ تقدير
سِعرَ عشرِ جارياتٍ
رومانياتٍ حسناوات،
بل وأكثر.

14

القصائد اللبنانية

كانت القصائدُ اللبنانيةُ المهاجرة،
تُبحرُ عبرَ المتوسّط،
لتُلهمَ كبارَ شعراءِ اليونان.

من وهجِها
أشعلوا نيرانَ أفكارِهم،
وبنورِها أضاءوا مساكنَهم،
وقصورَهم وحدائقَهم،
وحتى دورَ عبادتِهم،
دونَ مبالغة.

15

سهولة تامة

كانت القصائدُ اللبنانية

تَعبُرُ حدودَ اليونان،

بسرعةٍ فائقة،

وبسهولةٍ تامّة؛

بلا توقّف،

بلا تذكرة،

بلا هوية،

ولا حتى جوازَ سفر...

تمضي،

بسهولةٍ تامّة.

16

القصائد اللبنانية والرومانية

جسرٌ هائل،

جوّي، بحري، وبرّي،
يمتدُّ عبرِ العصور،
ليصلَ ما بين القصائدِ اللبنانية
والقصائدِ الرومانية،
كأنهما ضفّتان
لنهرٍ واحدٍ
لا ينضب.

17

قصة

عندما التقينا،
كانت المدينةُ تكتبُ تاريخَها العريقَ
بماءِ الورد،
وتُسطّرُ أمجادَها الخالدةَ
بماءِ الذهب.

عندما التقينا،

كان العطرُ الفاخرُ

ينسابُ بحريةٍ تامّة،

بشفافيةٍ كاملة،

يملأ أرجاءَ المنزل:

غرفةَ الجلوس،

غرفَ النوم،

وكلَّ الزوايا والجدران...

هناك،

كانت تنبضُ الحكاية،

وتُروى "قِصّة".

18

الروائح الزكية

وكان، أحياناً،
يبعثُ إليها رسائلَ حبٍّ دافئة،
كقلبِ الصباح،
بدفءِ يومٍ ربيعي،
وابتسامةِ شمسٍ ندية،
وعطرِ الفجرِ
الذي يملأ الأجواء
بالروائحِ الزكيّة.

19

مدن الذاكرة

سيلٌ من الأفكار العارمة،
كالسيول الجارفة،
يجتازُ مدنَ الذاكرة،
ليضعَ النقطةَ
على أولِ حرفٍ

في القصيدةِ المجهولة الهوية.

20

الغياب

خلف النافذة،
شمسٌ مريضةٌ تسطع في السماء،
وذئبٌ ماكرٌ يبتسم لي بخبث ودهاء،
كأنك تشحذُ أعضاءَ جسدك،
وسنواتِ حياتك،
بشفرةٍ صنعت من الغياب.

متسكّعٌ لم يعد يحلمُ بشيء.

21

النقاط الخمسة

أرواحٌ شريرة، خبيثة،
تعبثُ بالمكان،
تتجول بحريةٍ،
بغية السيطرة،
بطرقٍ غير مشروعة مطلقاً.

تحرك المرايا،
تشقلب صفحات الكتاب
على الطاولة الخشبية المستديرة،
وتدوّر الزوايا،
النقاطَ الخمسة بين حروفه.

أرواحٌ ملطخةٌ بدماء الهنود الحمر،
لا تعرف شفقة،
لا رحمة،

لا عدلاً،

ولا إنسانية.

22

كفرشوبا

تشرذم كبير

وتخبط

وسط حروف قصيدة

قتالية

آتية من مرتفعات تلال

كفرشوبا اللبنانية

23

الياسمين يليق بك

إلى هيفاء نصري

أردتُ أن أهديكِ

عقداً وسواراً من الياسمين،

فأنتِ، ببساطة،

روحٌ تعشق الياسمين.

صباحكِ يزهر بالياسمين،

ابتسامتكِ تتلألأ كالياسمين،

عطركِ نفَسُ الياسمين،

رقّتكِ ظلّ الياسمين،

صفاؤكِ مرآة الياسمين،

نقاؤكِ ندى الياسمين،

نعومتكِ همسُ الياسمين،

بوحكِ سرّ الياسمين،

التفاتتكِ ضوءُ الياسمين،

تنهداتكِ صلاةُ الياسمين،

وتسابيحكِ أنفاسُ الياسمين...

ولأنكِ أنتِ،

فلا شيء يليق بكِ

سوى الياسمين.

24

غزّة الأبيّة الصامدة

إلى د. سيف الرحبي، وإلى الأستاذين مصطفى الهود وأحمد مطر

ليتَ أقلامَنا تآزرتْ،

وأفكارَنا تشابكتْ،

لتكونَ معاً جداراً من حروفٍ

يحمي غزّة الأبيّة الصامدة،

التي تتلقّى اليومَ سهامَ

العدوان الصهيونيّ الغاشم،

عدوانٍ همجيٍّ بربريّ،

يطال البيوتَ الشعبية،

والممتلكات العامة والخاصّة،

المستشفياتِ والمستوصفات،

ويحصد الأرواحَ البريئة

في مجازرَ جماعيةٍ

لا تفرّق بين شيخٍ وامرأةٍ وطفل.

غزّة الجريحة،

يواجه أهلُها أيضاً سياسةَ التجويع،

سياسةَ الإبادة البطيئة،

كي يُمحَوا عن وجه الأرض،

كي يرحلوا بلا أثر،

لكنهم باقون...

شامخون كأشجار الزيتون،

لا ينكسرون.

ليتنا شبكنا حروفَنا النازفة،

وأطلقنا أقلامَنا كسهام،

علَّ صوتَنا يبلغُ العالمَ أجمع،

يُوقفُ المجازرَ الدموية،
ويضعُ حدّاً للاحتلال الجائر،
احتلالٍ لا يعرف إلا القتل،
والتدمير، والاستيطان،
ومشاريعَ هدمِ المسجد الأقصى
وبناء هيكلٍ وهميٍّ على أنقاضه.

فلتعودوا من حيث أتيتم،
أيها القتلةُ المجرمون،
ففلسطينُ لم تعُد أرضاً خصبةً لوحشيتكم،
ولن تكونَ يوماً وطناً لإجرامكم.
فغزّة الأبيّةُ ستبقى،
شامخةً كالقمر،
مضيئةً بالدم والكرامة،
إلى أن ينجلي الليلُ،
ويشرق فجرُ الحرية.

اجتماعنا معاً

إلى د. سيف الرحبي

ليتَنا اجتمعنا معاً،

في عمّان،

أو في هولندا،

أو في لبنان...

حولَ طاولةِ الكتابة،

نرسمُ ملامحَ القصيدةِ القادمة:

ما شكلُها؟

ما مضمونُها؟

ما عنوانُها العريض؟

إلى أين تتجهُ؟

وأيُّ آمالٍ ستبثُّها،

وأيُّ خيفةٍ تتسرّبُ من بين سطورها؟

ليتَ اللقاءَ كان،

لنتأمّل معاً قضايا الوطن،

ونغوص في جراحِ الأمة،

العربية والإسلامية،

نفتّش عن دروب الخلاص،

عن صوتٍ نقيٍّ

يحملُ همَّها،

ويودِعُ في كتاباتِنا اليومية

بعضاً من الحقيقة،

وبعضاً من الأمل...

على أقلّ تقدير.

26

يقول الخالق سبحانه وتعالى في القرآن الكريم:

بسم اللّٰه الرحمن الرحيم

"وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى"

صدق اللّٰه العلي العظيم.

ويعني ذلك أن لله سبحانه وتعالى الوصف الأعلى والأسمى، وأن صفاته لا تشبه صفات أي مخلوق أو أي شيء آخر، فهو فريد في ذاته وصفاته، لا يشاركه فيها أحد.

27

نتنياهو المعتوه

متى تُفيقُ من سُكرك،
أيّها الخروفُ الضال،
المأفونُ نتنياهو؟

متى تُفيقُ من كبوتك،
وتضعُ الأمورَ في نصابها الصحيح،
وتكفُّ شرَكَ عن أهلِ غزّة
المتعبين، المعذَّبين،
الضعفاءَ، المهمَّشين،
الجائعين، الفقراء، المشردين،
الذين لا حولَ لهم ولا قوّة؟

متى تُفيقُ من سُكرك،
أيها الجائرُ، المجرمُ، الظالم؟

إنْ عجز البشرُ عن ردعك،
وعن كفِّ يدكَ عن جرائمك في غزّة،
وعجزوا عن إيقاظك من غفلتك،
فإنّ ربَّ الكون سيوقظك،
لكنْ على طريقتِه الخاصة،
بمضاربٍ من حديد.

---28

غدًا

غدًا... وما أقربه غدًا،
غدًا تنكشفُ الأسرارُ المخفيّة،
ويطلُّ كلُّ وجهٍ على حقيقتِه.

سيظهرُ الثعلبُ الماكر،

والتمساحُ بدموعِه،

والضبعُ بنهَمه،

والأسدُ بزئيرِه،

والفهدُ بخفّتِه،

والنمرُ بشراستِه،

والنسناسُ بعبثِه.

غدًا، في لحظاتِ الأزمات—

الحياتيّة، الوطنيّة، الاجتماعيّة،

والمعيشيّة—

سيظهرُ كلُّ امرئٍ كما هو،

لا كما ادّعى أن يكون.

غدًا... وما أقربه غدًا.

آثار على الرمال

آثارٌ على الرمال،
لأقدام السيّد المسيح، عليه السلام،
رسولِ المحبّة والخير،
رسولِ الحقّ والعدل،
رسولِ الخُلُق الرفيع والسلام،
داعيًا إلى الهدى والإنصاف،
والمساواة بين الناس جميعًا.

هو من جاء بالهُدى ودين الحق،
كما أخبرنا ربُّ العالَمين:
﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلَامُ﴾،
صدق الله العلي العظيم.

آثارٌ على الرمال،
خطاها السيّد المسيح،

حين اجتاز الأردنَّ متّجهًا إلى
فلسطين المقدّسة.

لا تزال محفورةً هناك،
على بقعةٍ من الأرض،
شاهدةً، باقيةً،
إلى قيام الساعة.

30

جبل قاسيون

شامخةٌ هي،
كجبلِ قاسيون،
نديّةٌ،
كجدولٍ من بردى،
ناعمةٌ،
كأريج الياسمين،

راقيةَ،

كدمشقَ حين يغسلها المطر.

لأجلها،

عشقتُ الديارَ والأوطان،

الأماكنَ،

ورائحةَ قهوةِ الصباح...

لأجلها،

هي وحدَها فقط.

31

دماء باردة

أولئك القومُ مجرمون،

ساقطون، منحرفون،

مختلّون عقلًا،

وقَتَلة!

يتفنّنون بابتكار وسائلَ للموت،
تخطفُ أرواح العشرات،
بل المئات من الأبرياء.

هم امتدادٌ لأسلافٍ مجرمين،
كانوا يقتلون أنبياءَ اللّٰه الكرام،
عليهم السلام أجمعين،
بدماءٍ باردة،
وقلوبٍ قاسيةٍ حاقدة،
وأبصارٍ مطموسةٍ بالعمى.

لا يستحقّون نعمةَ النفس
الذي يتنفّسونه،
ولا ذرّةً من نور الحياة.

صدقوني...

لا شيء من هذا القبيل
أبدًا.

32

فنجان من القهوة

لا شيء يُغويني في غيابك،
يا معذبتي،
إلّا فنجانُ قهوةٍ أحتسيه صباحًا،
على أنغامِ زقزقة العصافير،
وصياحِ الديكة،
وهمسِ أشجار الصفصاف،
في قريتنا الشوفية.

33

أدق التفاصيل

قلبُك في لبنان،

وجسدُك في البرازيل،

فكرُك هنا،

ونصفُك الآخر في أرمينيا.

أنفاسُك معلّقةٌ بسماء لبنان،

وحياتُك عابرةٌ مدغشقر،

رحلةٌ على أجنحة زمنٍ غابر،

لا ينقصها أدقُّ التفاصيل.

وعليكَ أن تحفرَ قلبَها

بمحراثٍ من صبر،

لتقطفَ قبلةً،

أو تنتزعَ اعترافًا.

لبنان

أراد الشاعرُ أن يجعلَ لبنانَ،
كلَّ نسمةٍ عابرةٍ في فضائه،
قصيدةً تتكاثرُ بلا حدود،
قصائدَ لا تُحصى،
كعددِ النجومِ التي
تُضيءُ سماءه.

35

إلى شاعرة الياسمين
هيفاء نصري

أراد أن يكتبَ قصيدةً من ياسمين،
يزينُها بالياسمين،
ويعطّرُ حروفَها،

حرفَا حرفَا، بالياسمين،
ويهديها إلى عاشقةٍ وشاعرةٍ
للياسمين، لدمشق، لقاسيون، ولِبردى،

إلى الأستاذة الفاضلة، النبيلة،
الشاعرة الكبيرة
هيفاء نصري،
شاعرةُ الياسمين...
بلا منازع.

36

المرأة الغزّاوية

كانتِ المرأةُ الغزّاويةُ
مثالًا للكرامةِ والتضحية،

رمزًا للنزاهةِ والشرف،
لوحةً للصمودِ والوفاء،
وعزّةِ النفسِ التي
يُحتذى بها
في كلِّ زمانٍ ومكان.

37

أشتاق إليها

أشتاقُ إليها،
كالياسمينةِ البيضاء،
الطاهرةِ، البريئةِ، النقيّة،
في بستانٍ غنّاء،

تجمعُ قطراتِ الندى العذبة،
وتوزّعُها بالعدلِ

على جميعِ الياسمينات.

38

شجرة الخُلد

هممتُ أن أغرسَ شجرةَ الخُلدِ
في بستانِنا المليءِ بالخُضرةِ والنضرة،
غيرَ أنّ صاعقةً هوتْ من السماءِ
كسيلٍ جارف،
فأحرقتْها عن آخرِها،
كأنّها لم تكن...

---39

قنبلة وعود ثقاب

في زمنِ الحربِ على غزّةَ الأبيّة،
حيثُ الجوعُ ينهشُ الأرواح،
والفقرُ يُحاصرُ البيوت،
والقتلُ الممنهجُ يعبُرُ الأزقّةَ
كظلٍّ ثقيل،
تحتَ حصارٍ خانقٍ
كليلٍ بلا قمر...

كانت هناكَ امرأةٌ غزّاويّة،
تحملُ في صدرِها
ثِقَلَ الليالي الموحشةِ الدامية،
وتخبّئُ بين يديها
قنبلةً،
وعودَ ثقاب،

لتُشعلَ بهما الصرخةَ الأخيرة،
وتفجّرَ صمتَ العالم،
في أوّلِ مجموعةٍ من جنودِ الاحتلال

تصادفَها على الطريق.

الخاتمة

هكذا تمضي الصفحات، كما يمضي الليل فوق شرفة القمر، تاركًا وراءه بقايا من نورٍ يضيء عتمة الروح.

لقد حمل هذا الكتاب ما تيسّر من وجعٍ وحنين، من حبٍّ وخيبة، من صمتٍ واعتراف، لعلّه يكون مرآةً صغيرةً تلتقط وجوه القرّاء وظلال قلوبهم.

فالشعر لا يكتمل إلا حين يُقرأ، ولا تنبض القصيدة إلا حين تجد قلبًا يحتضنها.

وإن كان في هذه السطور ما يلامس روحكم، فقد بلغ القمر رسالته، وأدّى الشاعر بعض ما حمله من أمانة الكلمة.

حتى لقاءٍ آخر مع قصيدة جديدة، أترك لكم هذه الأوراق على شرفة القمر، شاهدةً على أنّ الشعر حياةٌ أخرى موازية للحياة.

محمود سليمان الظاظا